Annals of letters and languages حوليات الآداب واللغات
ISSN 2335-1969 E.ISSN 506X - 2602
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/312

مجلة علمية دولية محكمة . كلية الآداب واللغات . جامعة محمد بوضياف .المسيلة الجزائر

المجلد 09 عدد : 03–19– أكتوبر 2021 صفحة من : 235 إلى 249

نظرية الفونيم في الدرس الصوتي العربي والأوربي

Phoneme theory in the Arabic and European phonemic lesson

المؤلف الأول[1]* يمينة مصطفاي

y.mostfai@univ-bouira.dz كلية الآداب واللغات ،جامعة البويرة،الجزائر.

معلومات المقال Article info

تاريخ الاستلام :2021/08/09 .

تاريخ القبول :2021/10/13.

الكلمات المفتاحية

(الفنولوجيا،الفونيم،مدارس صوتية،التراث العربي،الوظيفة)

Key words

(phonology.phoneme.phonemic schools.arab heritage.function)

ملخص Absract

يتركز موضوع هذا البحث حول مصطلح الفونيم ونظريته من حيث أول ظهور لهما ومن حيث اختلاف مفهومهما بين المدارس الأوربية المختلفة ،ويحدد أسباب الاختلاف بينها في تعريفه وتوظيفه بسبب اختلاف وجهات النظر والدراسة ،والتي تعود لاختلاف الإديولوجيات السائدة في عصر هؤلاء العلماء.هذا من جهة .ومن جهة أخرى يعرض هذا البحث للمصطلح نفسه وهو الفونيم في الدراسات العربية القديمة ، مع بيان أهم المصطلحات التي كانت تحمل المعنى والوظيفة نفسها باعتبار مصطلح فونيم هو مصطلح معرب عن المصطلح الأجنبي.

Absract:

The subject of this research is centered on the term phoneme and its theory in terms of their first appearance and in terms of their different concept between the different European schools, and it identifies the reasons for the difference between them in its definition and employment due to the different viewpoints and study, and the intention is due to the different ideologies prevailing in the era of these scholars. This is on the one hand. On the other hand, this research presents the same term, which is the phoneme in the ancient Arabic stadies, with the most important terms that means the same meaning and function.

[1] المؤلف المرسل : يمينة مصطفاي

.

مقدمة:

تشمل اللسانيات النظرية والتطبيقية فروعا مختلفة تتناول مستويات متباينة من التحليل اللغوي ، الصوتي ، الصرفي والتركيبي ، وأهم هذه الفروع في المستوى الصوتي ما يأتي:

1- علم الأصوات المجردةphonetics : يدرس الأصوات الكلامية وتصنيفاتها من النواحي الآتية:

أ – إحداث الصوت من حيث نطقه، والاستعدادات والقدرات الوراثية التي تؤهل الإنسان لنطق أصوات الكلام، ويتناول هذا الجانب علم الأصوات النطقي Articulator phonetics .

ب – بنية الأصوات، وهي في طريقها إلى أذن السامع، والجوانب الفيزيائية المتعلقة بذلك، ويتناول هذا الجانب علم الأصوات الفيزيائيacoustic phonetics .أوphysical phonetic

ج – العمليات الفيزيولوجية والنفسية العصبية التي لها صلة بالإدراك الصوتي ويدرس هذا المجال علم الأصوات السمعي auditif phoneticوعلم الأصوات العصبي neurological phonetics .

2- علم الأصوات التركيبي "phonology" (وهو الصوتيات الوظيفية): ويهتم هذا العلم بالأصوات الكلامية ذات الصلة بالدلالة، تلك المسماة بالفونيمات phonemes ، وتنوعاتها الصوتية allophones في لغة ما، وخصائصها وأنظمتها، والقواعد التركيبية التي تحكمها، وبينما يتناول علم الأصوات المجردة الجوانب المادية للأصوات الممكنة في كل اللغات، يتناول علم الاصوات الوظيفي التركيبي النظام الصوتي في لغة بعينها، وخصائصه وقوانينه مع امكان المقارنة مع الأنظمة الصوتية في لغات أخرى .

وتعتبر نظرية الفونيم محور الفنولوجيا في كل المدارس الصوتية الغربية ، وقد نقلها العلماء المحدثون إلى العربية ،مع إغفال كثير منهم لوجودها في التراث الصوتي العربي .

فماهو مفهوم هذا المصطلح في الدرس الصوتي الغربي؟ هل يحمل الدلالة نفسها في المدارس الصوتية الغربية المختلفة ؟ وأين نجد جذور نظرية الفونيم في التراث الصوتي العربي وما هي مصطلحاتها .؟

2–نظرية الفونيم في الدرس الصوتي الغربي :

استطاعت الفنولوجيا أن توسع آفاق البحث الصوتي الحديث وذلك لمحاولة معرفة الحقائق الصوتية التي تتجاوز الأصوات المفردة إلى علاقاتها في بنية اللغة. ومن أهم هذه الحقائق التي توصلت إليها وأولتها عناية فائقة نجد الفونيم الذي شكل ما يصلح عليه بنظرية الفونيم ونجد ضمنه المقطع والنبر، والتنغيم وغيرها. ويرى حسام البهنساوي أن أصول نظرية الفونيم تعود إلى "الماضي البعيد عندما اهتدى الإنسان

إلى النظام الألفبائي الذي لا يرمز إلى الكلمة ككل أو للمقطع ككل وإنما للأصوات التي تشكل الكلمة"[1].وتقوم نظرية الفونيم على مصطلح "فونيم".

و"الفونيم Phonème كلمة فرنسية بمعنى الصوت الكلامي، كونه واقعة صوتية"[2] أما ظهوره فقد كان في البحوث اللسانية وتذكر بعض المراجع أن أول من استعمل مصطلح فونيم Phonème هو العالم البولندي "جون بودوان دي كورتناي" عام 1870 ومنهم من يرى أنه "دفريس ديجينت Difriche des Gentes" عام 1873م وثاني من استعمله هو لويس هافي Louis Havet ومنه انتقل إلى دي سوسير[3] (...) وتعني كلمة "Phone" في المنطوق اللساني "الصوت المفرد" أو الصوت اللغوي البسيط، أو الصوت الموضوعي وقد تول عنه، على مستوى التنظيم الإجرائي "الفونيم Phonème" وهو مصطلح فنولوجي"[4]، ويطلقه المحدثون على الوحدة الصوتية وترجم بمقابلات مختلفة منها: صوتون، مستصوت، لافظ، صوت مجرد، صيتة وغيرها لا وهي توافق ما كان يسميه القدماء بالصوت أو الحرف (...) ويطلقون على صورها الفرعية مصطلح "Allophone"[5]، وهو كما يظهر تعريف عام، يبين أن الوحدة الصوتية لها أساس هو المعنى التجريدي ويقصد به النوع لا الأفراد والصور الجزئية، وهو ما يسمى بالفونيم ويتفرع عنه بعد ذلك صور عديدة هي ألوفونات وهو معنى خاص يطلق على الصوت الجزئي المفرد، مع مراعاة صفاته النطقية والسمعية.

1.2. مبدأ الوظيفة في ظهور مصطلح الفونيم:

لعل السؤال الذي طرح بحدة فيما يخص الأصوات هو متى يمكن أن يعد الصوت صوتا واحدا؟ ومتى يمكن اعتباره أصواتا؟ للإجابة على هذا السؤال يمكن القول إن ثمة درجات وتنوعات للأصوات فما يسمى صوتا واحدا قد يتردد بنفسه أكثر من مرة في كلمة من الكلمات ولكن ينطق في كل مرة بصورة مختلفة فـ "النون صوت واحد إذا نظرت إليها من الناحية الوظيفية، أي إذا نظرت إليها من حيث كونها قادرة على تغيير معاني الكلمات أو عدم قدرتها على ذلك، ولكنها عدة أصوات إذا نظرت إليها من الناحية النطقية الصرفة فقط، أي: من حيث واقعها في النطق الفعلي في الكلام ومن حيث تأثيرها على السمع"[6] فالأصوات المختلفة نطقا و سماعا ما هي إلا صور نطقية سمعية للصوت الواحدو اصطلح على تسميتها بالوحدة الصوتية أو الفونيم و له وظيفة في تغيير معاني الكلمات.فالوظيفة هي المبدأ الأساس في ظهور هذا المصطلح جنبا إلى جنب مع مصطلح الصوت ثم تجاوزه بل أصبح يحتويه وهذا ما ولد بعد ذلك نظرية الفونيم التي تحاول تفسير الأصوات المتعددة نطقا الموحدة خطا وتجدر الإشارة إلى أن العلماء قد اختلفوا في هذا المبدأ أصلا .

فالوحدة الأساسية لعلم الأصوات هي الصوت المفرد، لكن وحسب ما يظهر فإن اللغويين قد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فوصفوا أصوات اللغات من خلال وجهات نظر متباينة.

فمنهم من نظر إلى خواصها المادية التي يمكن قياسها وملاحظتها علميا وآخرون نظروا إلى ورودها في النصوص اللغوية. فمن هنا نشأ الاختلاف حول نظرية الفونيم، والتي هي في الحقيقة تجمع بين جملة من النظريات والمذاهب اللغوية.

والاختلاف حول هذه نظرية الفونيم كان أولا من حيث قبولها أو رفضها كمبحث مستقل في الدراسة الصوتية، ثم الاختلاف بين الذين رأوا أهمية هذه النظرية لكن طريقة تناولها تختلف باختلاف زوايا النظر إليها.

ومن الرافضين لهذا التوجه في الدراسات الصوتية نجد مدرسة لندن (الانجليزية)اللغوية، وفي مقدمة أعلامها نجد "فيرث FIRTH" "الذي يصرح برفضه في قوله "نحن لا نجد أي وحدة أو جزء وحده يمكن أن يسمى "فونيم" بالإضافة إلى أن هناك تحليلات مختلفة –ليست جيدة في رأيي قد قدمت حول نظرية الفونيم"[7].

وفي مقابل هذا الرأي نجد الآراء القائلة بضرورة نظرية الفونيم وجدواها، من بين هاته الآراء رأي "ألبركرومبي ALBER CROMBIE" والذي قال إن "بعض المصطلحات الفنية بمجرد صكها، يبدو أنه لا يمكن الاستغناء عنها، لدرجة تجعل من الصعب أن نتصور كيف يمضي الناس بدونها، وربما كان لفظ فونيم واحدا من هذه المصطلحات"[8]، وإلى جانبه نجد رأي "كرامسكي KRAMSKY" الذي رأى "أن اكتشاف الفونيم يعد واحدا من من أهم الانجازات التي حققها علم اللغة، وأن ذلك يعادل اكتشاف الطاقة النووية لأن هذا الكشف في مجال علم اللغة، أدى إلى ثورة التفكير اللغوي"[9].

ولكن رغم اختلافهم حول نظرية الفونيم، وما يحوم من شك حول جدواها وقيمتها. إلا أنها رغم ذلك تعد من النظريات اللغوية الجديرة بالاهتمام والدراسة، حيث يرجع الفضل إليها في ابتكار الكثير من الأبجديات واختراعها وإنشاء الرموز الكتابية لكثير من اللغات الإنسانية المنطوقة التي كانت محرومة إلى عهد قريب من تمتعها بهذا النظام الأبجدي"[10].

وقد ساعد التطور التكنولوجي على إظهار خصائص الأصوات باستعمال الوسائل المعملية التجريبية، فساعد علم الفنولوجيا على تأكيد أهمية نظرياتها بتقييمها و "تصنيفها من حيث الوضوح السمعي وشدته، ودرجة الصوت ونحو ذلك، وكذا علوم هندسة الصوت وقياساته الدقيقة للذبذبات الصوتية، قياسات علوه واتساعه ونحو ذلك"[11].

وفيما يلي عرض لأهم الآراء والاتجاهات حول هذا المصطلح ونظريته الكبيرة:

2.2. الإتجاهات المختلفة حول نظرية الفونيم:

إن المدارس الصوتية الغربية ولدت مجموعة من المذاهب والإتجاهات المختلفة في النظر إلى الفونيم و لعل أشهرها ما يأتي:

1.2.2- النظرة العقلية النفسية أو الاتجاه العقلي النفسي:

يمثل هذا الاتجاه كل من سابير Sapir، وفاويجك N.Vanwijk، وماريوباي M.Pie، وبودوان دي كورتني.

فسابير يعرف الفونيم بقوله: "الفونيم صوت مثالي Ideal Sound نحاول تقليده في النطق، ولكننا نفشل في إنتاجه تماما كما نريد أو بنفس الصورة التي نسمعها"[12].

وفسره بودوان كورتني تفسيرا نفسيا "حيث عرفه بأنه صورة ذهنية"[13]، فقسم بذلك الفونيم على أساسين، تقوم عليهما الدراسة الصوتية وهذان الأساسان هما:

"أولا: عضوي: ووظيفته دراسة الأصوات المنطوقة بالفعل.

ثانيا: نفسي: وهدفه دراسة الصور الذهنية للأصوات التي تمثلها أو تحاول تحقيقها الأصوات المنطوقة"[14]، فالأول يتناول الأصوات المنطوقة بالدراسة ويعرف بعلم الأصوات العضوي، والثاني هو علم الأصوات النفسي، وهو عنده –أي الأساس الثاني– "يمثل الصورة الكتابية للفونيم، أي الصورة الذهنية أو الأصوات التي يفترض أن المتكلم يحاول نطقها ولكنه قد ينجح وقد يخفق في ذلك"[15].

فهذا الاتجاه يعتبر الفونيم صوتا مفردا له صورة ذهنية يستحضرها المتكلم إلى عقله بالإرادة، و ينطقها في الكلام بلا وعي، وقد ينجح في تحقيق الصوت بالنطق ويخفق مرات أخرى.

2.2.2. النظرة العضوية التركيبية أو الاتجاه المادي:

رائده دانيال جونز وقد عرف الفونيم بأنه "عائلة من الأصوات المترابطة فيما بينها في الصفات في لغة معينة والتي تستخدم بطريقة تمنع وقوع أحد الأعضاء في كلمة من الكلمات في نفس السياق الذي يقع فيه أي عضو آخر من العائلة نفسها"[16]، فأصحاب هذه النظرة يعترفون بعبارة "عائلة الأصوات" (...) التي "لا تتبادل المواقع الصوتية فيما بينها، فكل عنصر عضو خاص في بيئة صوتية معينة (...) فالفونيمات هي التي تتبادل، ولكن أفرادها أو أعضاءها لا تتبادل"[17]، فالصور المختلفة للفونيم لها خصائص نطقية محضة، يمكن تمييزها في النطق والسمع، ولكنها ليست بذات وظيفة لغوية واحدة، وبالتالي لا يتخذ منها مميزا للكلمات لأنها لا تستطيع أن تغير معاني الكلمات ولا تصلح أن تتبادل فيما بينها في الموقع والبنية.

أما وظيفة الفونيم في هذا الاتجاه فهي "التمييز بين الكلمات ومنحها قيما لغوية مختلفة، صرفية أو نحوية أو دلالية"[18] فالفونيم هو الذي يؤدي إلى تغيير المعنى، أما الصور المختلفة فهي لا تؤدي إلى اختلاف المعنى وإن "التمييز بين الكلمات قد يكون بصور مختلفة منها استبدال فونيم بفونيم آخر (...) وقد يكون بزيادة فونيم أو نقصه"[19].

أما سبب تسمية أحد الأفراد "ألوفونا رئيسا" أو سبب اعتماد تسمية "عائلة" فيرجعها جونز إلى:

"1- كثرة ورود هذا العضو في الاستعمال اللغوي بصورة تفوق بقية الأعضاء.

2- كونه العضو الذي يستعمل وحده منعزلا عن السياق الفعلي.

3- كونه في الموقع المتوسط بين بقية الأعضاء"[20].

وقد كان لدانيال جونز إسهامات عملية باستغلال نظرية الفونيم وذلك في محاولة ابتكار ألفباء فونيمية (رمز واحد لكل فونيم)، حيث وضع ما يعرف بالألفباء الدولية International phonetic transcriptir وتعرف بالألفباء الواسعة "Broad transcription" في مقابل الألفباء الضيقة: "Nanow transcription" وهي نظام كتابي لأصوات اللغة يضمن إلى حد مقبول تصوير الأصوات بتفاصيلها، وصورها المتعددة المتنوعة في النطق الفعلي.

ورأى كثير من الأمريكان(التوزيعيين) أن الفونيم لا معنى له (علهم يقصدون المعنى العقلي أو المعجمي) أما فيرث يؤكد أن للفونيم معنى (التفريق بين معاني الكلمات).

واتفق معظمهم على خاصيتين مهمتين للفونيم:

1- الفونيمات جزء من نظام اللغة المعينة: لايقاس فونيم لغة على لغة أخرى.

2- البحث في الفونيمات ينصرف إلى اللغة المنطوقة إذ هي وحداتها الصوتية أما المكتوبة فوحداتها الرموز الموضوعية لترجمة المنطوق وتسمى graphèmes.

و يصنفون الفونيم حسب هذا الإتجاه إلى صنفين:

الفونيم الرئيسي: "Primary phonème" والثاني نعتوه بالفونيم الثانوي: "Secondary phonème" والمقصود بالفونيم الرئيسي تلك الوحدة الصوتية التي تكون جزءا من أصغر صيغة لغوية ذات معنى منعزلة عن السياق (جزءا أساسيا من بنية الكلمة كالباء والتاء بوصفها وحدات لا أمثلة نطقية فعلية). أما الفونيم الثانوي فيطلق على كل ظاهرة أو صفة صوتية ذات مغزى أو قيمة في الكلام المتصل، معناه أن الفونيم الثانوي لا يكون جزءا من بنية الكلمة وإنما يظهر ويلاحظ في الكلام المتصل.

ومراعاة لهذه الفروق رأى بعضهم تسمية فونيمات النوع الأول (الرئيسي) Segmental phonèmes الفونيمات "التركيبية أو القطعية" والثاني "Suprasegmental phonèmes" أي الفونيمات "فوق التركيبية أو غير القطعية".

3.2.2. النظرة الوظيفية التركيبية أو الاتجاه الوظيفي:

تمثله مدرسة براغ، ومن أشهر أعلامها "تروبتسكوي" صاحب المؤلف الشهير "مبادئ الفونولوجيا"، واعتنى بتطوير مفهوم الفونيم أيما عناية، ويعرف الفونيمات بأنها الوحدات الصوتية التي لا يمكن تقسيمها إلى عناصر صوتية متتابعة من وجهة نظر اللغة المعينة التي يقوم الباحث بدراستها"[21]، فهم يحاولون اكتشاف العلاقات التي تربط الأصوات بعضها ببعض داخل النظام اللغوي ويحددوا منزلتها، ومنه

الوصول إلى الوظيفة المنطوقة بالصوت في عملية التبليغ، فالفونيمات: "علامة مميزة لا يمكن تعريفها إلا بالرجوع إلى وظائفها في تركيب كل لغة على حدة"[22].

فالفونيم يدرس حين ينضم إلى غيره من الوحدات الصوتية لبناء مفردة معينة يكون لها معنى خاص، وتكون له وظيفة لغوية، ويؤثر في المعنى ،و إذا ما استبدلناه بفونيم آخر اختلف معنى المفردة وصارت كلمة أخرى.

مفهوم الفونيم عند تروبتسكوي من خلال كتابه "مبادئ الفنولوجيا:

يتحدث تروبتسكوي عن الفونيم في إطار حديثه عن التقابل الفونيمي ،و يقصد به كل تقابل صوتي ،يستطيع، في إطار اللغة الواحدة،أن يخالف بين الدلالات الفكرية ويسمى كل طرف في هذا المجال "التقابل الفنولوجي" "وحدة فنولوجية تمييزية"

يستخلص من هذا التعريف أن الوحدات الفنولوجية يمكن أن تختلف اختلافا كبيرا[23].

ويسمي تروبتسكوي هذه الوحدات الفنولوجية التي لا تقبل التحليل أو التجزيء إلى أجزاء أصغر متعاقبة "فونيمات" فالفونيم إذا هو "أصغر وحدة فنولوجية في لغة معينة (توبتسكوي، ص38) وأشار تروبتسكوي إلى أنهذا التعريف للفونيم قد صاغه لأول مرة "رومان ياكوبسون" سنة 1929، كما أشار إلى التعريف الذي وضعه N.F.Jakovlev: "نعني بالفونيم كل خاصية صوتية تبرز في السلسلة الكلامية كأصغر عنصر يستخدم في التمييز بين وحدات الدلالة ،وشبه تروبتسكوي الكلمات بالأشباح، فكما يتميز شبح عن آخر بسمات خاصة كذلك تتميز كلمة عن أخرى بواسطة الفونيمات التي تقوم بدور العلامات التمييزية بين الكلمات، وقد أسهب تروبتسكوي في تعريف الفونيم، (وأهم ما ذكره): "الفونيم هو مجموع الخصائص الفنولوجية الملائمة التي تحتويها صورة صوتية"[24]، "والفونيم لا يتحدد بشكل جيد من خلال طبيعته السيكولوجية، ولا من خلال علاقته مع البدايات الصوتية، لكن يتحدد فقط من خلال وظيفته في اللغة".ويقول أيضا: "وعندما نحدد الفونيم كأصغر وحدة تمييزية (كما يرى بلومفيلد)، أو كعلامة صوتية في جسم الكلمة (كما يرى بوكلر bukler)، فإن ذلك كله يؤدي إلى نفس المعنى، أي أن كل لغة تفترض تقابلات صوتية فنولوجية تمييزية، وأن الفونيم، هو أحد أساليب هذه التقابلات غير قابل للتحليل إلى وحدات فنولوجية تمييزية أصغر"[25].

وبهذا التعريف الواضح لا يرى تروبتسكوي أي مبرر لتغيير مفهوم الفونيم لأن أي تغيير في هذا الموضوع لا يقودنا —حسب المؤلف– إلا إلى تعقيد لسنا في حاجة إليه .

وقد اتقد التعريفات القائمة على مفهوم "البديل التأليفي" ومنها تعريف "دانيال جونز" الذي اعتبر الفونيم عائلة أو مجموعة من الأصوات متماثلة سمعيا ومخرجيا، وغير قابلة للظهور في نفس المحيط الصوتي ،ويرى تروبتسكوي أن تعريف "دانيال جونز"يقتضي أن الخطاب البشري يتكون من فونيمات وأصوات لسان وأن هذين العنصرين لا ينتميان إلى مستويات مختلفة ولكن يتواجدان في نفس المستوى. .

4.2.2.النظرة التجريدية أو الاتجاه التجريدي:

من أعلام هذا الاتجاه نجد الياباني "جمبو Jimbo" والانجليزي دانيال جونز D.Jones "في آخر طور من أطوار صياغته لمفهوم: الفونيم"[26]. والأمريكي تودال W.F.Twaddell الذي يرى ان "الفونيم لا وجود له من الناحية العضوية ولا من الناحية العقلية، إنما هو وحدة تجريدية يقوم الباحث باستخلاصها من الأحداث النطقية بعد تجريدها والوصول منها إلى كل أو وحدة مستقلة"[27]، فهي وحدات افتراضية تجريدية ليس لها وجود مادي حقيقي أو ذهني، وهو اتجاه انتقده تروبتسكوي كما رأينا سابقا.

يقول فدريس: لسنا في حاجة إلى القول بأننا لا نستطيع إحصاء الأصوات في لغة ما بعدد الحروف الموجودة في أبجديتها[28]، و"هذه التنوعات الصوتية أطلق عليها دانيال جوونز مصطلح الالوفونات allophones"[29]، ويعرف"عاطف مدكور" الألوفونات بأنها تنوعات صوتية يتحقق بها الفونيم وفقا لموقعه في الكلمة وما يجاوره فيها من أصوات"[30]، أما محمد علي الخولي فيعرف الألوفون بأنه: صوت كلامي حقيقي يشكل مع أصوات أخرى تماثله عائلة واحدة مجردة تسمى فونيما"[31].

والحقيقة أن الألوفونات تنقسم إلى نوعين:

1- الألوفونات المقيدة: وتدعى أيضا التكاملية الإجبارية، وهي التي ترتبط بالسياق، فكل ألوفون منها يحدده موضع معين في السياق الصوتي، فلا يجوز أن يحل ألوفون منها محل ألوفون آخر، [كترقيق وتفخيم اللام في لفظ الجلالة].

[وبهذا المنظار يمكن اعتبار الألوفون المقيد شكلا من أشكال الفونيم يفرضه السياق الصوتي دون تغير في معنى الكلمة].

2- نلاحظ مما سبق أن الألوفونات المقيدة وإن اختلفت في بعض السمات الصوتية فإنها تنفق في أهمها وهي المخرج الصوتي لذلك نجد معظم اللغويين اتخذوا التقارب أو التشابه الصوتي أساسا لتوزيع الالوفونات وإلحاقها بفونيماتها[32].

[وقد تكن الأصوات مختلفة عن بعضها البعض اختلافا كاملا ومع ذلك فإننا نعدها ألوفونات، وهي مرتبطة أساسا بالاختلاف اللهجي وتسمى]:

الألوفونات الحرة: وهي النوع الثاني الذي يرتبط بالاختلاف اللهجي، [كالجيم والقاف عند القاهريين واللبنانيين والسوريين والجزائريين ...].

"وتعد هذه الصور النطقية المختلفة لفونيم الجيم [ذكره سابقا] في العربية من قبل الاختلافات اللهجية، وهي ما يسمى بالتغيرات الحرة free variants أو الألوفونات الحرة، لأنها غير مقيدة بسياق صوتي معين، إذ يمكنها أن تحل محل بعضها البعض في السياق نفسه دون تغير في دلالة الكلمة رغم ما قد تضفي عليها من غرابة لدى أفراد لهجة معينة".وإن هذه الأمور ليست متطابقة مع جميع اللغات.

3. تصنيف الفونيمات الأساسية:

1- الصوائت والصوامت:

اختلف العلماء في تسمية هذه القسمين فتمام حسان يفضل مصطلحي الصحاح والعلل، وأما إبراهيم أنيس فيعتمد مصطلحي الأصوات الساكنة في مقابل الأصوات اللينة (...)[وغيرهما].

1- الصوائت: هي أكثر الفونيمات استعمالا في اللغات المختلفة رغم قلة عددها مقارنة مع الصوامت.

ولاختلاف الصوائت بين اللغات حاول العلماء وصف صوائت معيارية عامة ومن أهم من عني بذلك الأستاذ "دانيا جونز" الذي وضع نظاما عاما للحركات المعيارية لخصه في رسم هندسي[33].

وقد اعتمد في ذلك على العضوين الأساسيين في تشكل الحركات، وهما الشفتان واللسان بالإضافة إلى الطول والغنة في الفرنسية وذلك بالنظر إلى حركة اللسان من ارتفاع أو انخفاض وتقدم وتأخر في الفم والنظر إلى شكل الشفتين من استدارة أو انفراج.

2-[الصوامت تختلف عن السابقة فيزيولوجيا (الاعتراض) تتميز بالمخرج زائد الصفة: منها تتشكل سماتها التميزية وهي الخصائص النطقية للفونيمات].

الفونيمات الثانوية: [فوق تركيبية] [فوق قطعية] هي تلك الظواهر الصوتية المصاحبة للكلام ولا تتجسد في صورة وحدات تركيبية داخل سلسلة المنطوق (...).

وقد أطلق على الوحدة فوق القطعية أعم Prosodéne بمقابل الوحدة القطعية الفونيم، ومن بين الوظائف التي تؤديها هذه الوحدة أن تكون تمييزية (distinctif) أو تعبيرية (Expressif) أو تسهيل النطق...[34]

وسمية بالثانية لأنها عكس الأساسية (الرئيسة) لا تكون جزءا من تركيب الكلمة، وإنما تظهر كما قال: كمال بشر وتلاحظ فقط حين نظم كلمة إلى أخرى أو حين تستعمل الكلمة الواحدة بصورة خاصة[35].

4. ظاهرة الفونيم في الدراسات العربية القديمة:

لم يفرق علماء العرب بين الحروف والأصوات والتنوعات الصوتية، وهو أمر واضح عند أكثر الدارسين، والسبب أن اللغويين العرب القدماء اتجهوا "عند النظر في استنباط الحروف من الأصوات اتجاها عكس ما يراه المحدثون، فالدراسات الصوتية الحديثة، تبدأ بالأصوات، وتنتهي بالحروف، حيث ينظم الباحث ما لديه من أصوات، جرت ملاحظتها ووصفها فيبوبها إلى مجموعات، يسمى كل مجموعة منها حرفا، وذلك كأن يجمع لأصوات فيجعلها تحت عنوان واحد هو حرف النون"[36].

وقد استخدم الجليل بن أحمد مصطلح "الحرف" للدلالة على مفهوم الصوت وللدلالة أيضا على مفهوم الفونيم فهو عنده بمعنى الصوت إذا ارتبط بالمخرج والحيز والمدرج، ويعين الفونيم من حيث القيمة التبادلية [والموقعية] والخصائص المميزة لكل صوت، وبالتاي فإن الخليل قد التفت ولاحظ بصورة واضحة بعض الخصائص المميزة للأصوات العربية من حيث هي فونيمات، ويتمثل ذلك في أمرين:

1- الخصائص المميزة أو التقابلات المميزة لكل صوت.

2- القيمة التبادلية لكل صوت أو فونيم داخل البنية.

وبناء على هذا التمييز أخذ الخليل يستقرئ الخصائص الفونولوجية لبناء الكلمة العربية من حيث دخول الفونيمات في بناء معين، فوجد مثلا أن تقارب المخرج بصورة عامة من العلل المانعة لدخول فونمين من حيز واحد في بناء واحد كما وضع قانونا عاما يتصل بعلاقة الأصوات بعضها ببعض داخل البنية يمكن أن نسميه قانون الذلاقة وقد رأى الخيل أن أصوات الذلاقة أكثر دورانا في بنية الكلمة العربية لسهولتها في النطق وهي الراء واللام والنون والفاء والباء والميم، وبناء على هذه الملاحظة الإحصائية يستنتج الخليل قانونا فونولوجيا يحكم البناء الرباعي والحماسي في اللغة العربية وغير ذلك من القواعد الفونولوجية البنائية.

هذا من جهة ومن جهة أخرى إن سبب الاتجاه المعاكس للعرب القدماءفي دراسة الحروف و الأصوات (سبويه وأصحابه) أنهم حين "قصدوا تحليل الأصوات كان بين أيديهم نظام كامل للحروف، وكانت الحروف، ومشهور للغة العربية، وكانت الحروف التي يشتمل عليها هذا النظام قد جرى تطويعها للكتابة، منذ زمن طويل، فكان لكل حرف منها رمز كتابي، يدل على الحرف في عمومه، دون النظر إلى ما يندرج تحته من أصوات، فارتضى سبويه وأصحابه هذا النظام الصوتي المشهور واتخذوه نقطة ابتداء في دراساتهم للأصوات العربية"[37]، فاختلاف نقطة الانطلاق لدى الدارسين أدى إلى اختلاف في النتائج، لكن دون أن يمنع القدماء من والوصول إلى بعض المفاهيم التي توحي بأنهم عرفوا بعض مظاهر الفنولوجيا، فمثلا نجد أن "صورة الصوت الذهنية أي –الحرف وما يعرف الآن بالفونيم– كانت جاهزة لديهم، فقد وصلت إليهم عن طريق الرسم –أي الرمز الكتابي للصوت فعدوها الصوت الأصلي وما يعتريها من تغيير في أثناء النطق السياقي عدوه فرعا، فالنون مثلا صوت أصلي، والنون الخفيفة فرع، والهمزة صوت أصلي والهمزة التي بين بين فرع منه"[38].

وعلى هذا الأساس فإن الأصوات العربية التي تحت كل حرف من هذا النظام لا تعدو أن تكون صفة لهذا الحرف، كأن تكون إدغاما له أو إقلابا أو إخفاء، وهكذا جاء منهج [القدماء] في دراسة الأصوات من حيث اتجاه الحركة عكس المنهج الحديث[39]، و في هذا يقول شرف الدين الراجحي: "ونجد تفسيرا واضحا للفونيم في العربية مثل الصوت "النون" الساكنة فهو يقلب ميما إذا جاء بعده صوت الباء ويسمى هذا في مصطلح علم التجويد "الإقلاب"، وتصبح النون ساكنة إذا جاء بعدها فاء شفويا أسنانيا وهو أسناني إذا جاء بعده تاء أو ذال أو طاء مثل "منثور"[40].

ومن الأدلة التي يقدمها هذا الاتجاه الذي آمن بوجود مثل هذه الدراسات في الآثار القديمة، ما خلفه سيبويه، الذي قال: "وهذه الحروف التي تممتها اثنين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون لا تتبين إلا بالمشافهة"[41]، فالجانب الصوتي يتحقق أثناء التجسيد الفعلي للكلام، الذي لا يكون إلا بالصوت، وبعد أن "يجمع لنا الحروف في تسعة وعشرين حرفا، يتبعها بمجموعات من الحروف العربية، التي تستحسن في قراءة القرآن الكريم والشعر ونحوه، يجملها في ستة حروف، فيصل بذلك مجموع الحروف العربية إلى خمسة وثلاثين حرفا"[42]، وفي الحقيقة ما هي "إلا متنوعات صوتية، وليست وحدة صوتية في نظام اللغة"[43]، وحدد سيبويه الحروف المستحسنة على أنها ستة وهي "النون الخفيفة،التي يكون مخرجها من الخياشيم و يقال لها الخفيةو الهمزة المخففة و تسمى الهمزة التي بين بين و هي للتسهيل(...) و ألف الإمالة(...) والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي، وألف التفخيم على لغة أهل الحجاز في قولهم: "الصلاة والزكاوة والحياة"[44]، وأضاف على هذه الحروف المستحسنة حروفا أخرى غير مستحسنة، وقال إنها "كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن الكريم ولا في الشعر، وهي الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالقاف والجيم التي كالشين، والصاد الضعيفة والصاد التي كالسين والطاء كالتاء، والباء التي كالفاء"[45].

ومن الذين أشاروا أيضا إلى هذه الظاهرة المبرد الذي قال "اعلم أن الحروف العربية خمسة وثلاثون حرفا منها ثمانية وعشرون لها صورة"[46].

فالعلماء العرب بهذا أدركوا أن للغة العربية مجموعة صوتية تتألف من مجموع حروفها الصوتية التي تزيد غالبا على حروف الهجائية الأصلية بين هذه الحروف التي تتألف منها المجموعة الصوتية انسجام يقيم توازنا واتساقا، وهذا كما أوضحه سيبويه في حديثه عن الحروف المستحسنة.وفي رسالة "أسباب حدوث الحروف" لابن سينا، تحديد فنولوجي سبق به أهل الفنولوجيا بقرون، إذ يقول: "الحرف هيئة للصوت، عارضة تتميز بها عن صوت آخر في الحدة والثقل تميزا في المسموع"[47].

فيرى بعض الدارسين أن "الألفباء العربية قد راعت بكل دقة ووضوح مبدأ الأخذ بفكرة الفونيم والتعبير عن هذا الفونيم، فالباء رمز واحد ومثله التاء الخ مهما تعددت صور هذه الفونيمات في الكلام المنطوق"[48]. وأيضا اعتبار الفونيمات في الدرس اللغوي الحديث من حيث هي أصوات ذات سمات و خصائصقادرة على التمييز من حيث أبدالها ومن حيث تغير مواقعها في الوحدة اللغوية، يتوافق إلى حد كبير مع فكرة التقاليب والتبادل في الاشتقاق الكبير، فتقاليب أي مادة من مواد الخليل في معجمه ما هي إلا تغيير في ترتيب الفونيمات، بحيث يؤدي ذلك إلى بناء كلمات جديدة. وقد "حدث هذا بكل دقة في فونيمات الأصوات الصامتة consonant ، وحدث مثله في فونيم الحركات (الأصوات الصائتة) Vowels [49]، كما نجد تفسيرا واضحا للفونيم في علم التجويد والذي يصطلح عليه "بالإقلاب" فمثلا النون الساكنة تقلب ميما إذا جاء بعده صوت الباء و غيرها.

4. خاتمة:

بعد هذه الدراسة المستفيضة لهذا المصطلح يمكننا تسجيل النتائج الآتية :

-ظهور مصطلح الفونيم في الدرس الصوتي الأوربي واعتباره محور الفنولوجيا.

-رغم الختلاف في مفهوم الفونيم بين العلماء إلا أن له الدور الأساس في وضع أبجديات كثير من اللغات .

-إنه مهما اختلفت الاتجاهات في دراسة الفونيم، فإن النتائج التي تم التوصل إليها في نظرية الفونيم هي نتائج متماثلة ومتقاربة إلى حد كبير ويمكن تلخيصها على النحو الآتي:

"1- الفونيم يمير كلمة من أخرى، وبالتالي تفرق بين الكلمات من الناحية الصرفية والنحوية والدلالية.

2- الفونيم وسيلة مهمة في تسهيل عملية تعليم وتعلم اللغات الأجنبية فالأصوات الفعلية الحقيقية لأية لغة كثيرة إلى حد كبير، ولكن فونيمات كل لغة تقل عن عدد هذه الأصوات الفعلية بصورة ملحوظة.

3-الفونيم له ثورة ذهنية ووظيفة في السياق يسعى المتكلم لتحقيقه في السياقات اللغوية المختلفة.

- إذا كان أمر الفونيم قد حسم بينائه على الوظيفة التي يقوم بها على مستوى الكلمة أو الوحدة اللغوية التي يدخل في تركيبها، فإن إشكالية صعوبة تحديد الأصوات اللغوية مازالت عائقا أمام إمكانية تحديد جميع الصور التطبيقية لكل فونيم، وربما كان ذلك من أكبر وأهم الأسباب التي صعبت في البداية أمر تحديد هوية الفونيم خاصة من الناحية الفيزيولوجية والفيزيائية.

كما تجدر الإشارة إلى أن ما يعد فونيما في لغة ما قد لا يعد كذلك في لغة أخرى وقد يعد مجرد تنوع صوتي فيها مثل س، ص،ت،ط،ر، غ في العربية وما يقابلها في الفرنسية وغيرها.

-اختلف مفهوم الفونيم بين المدارس الصوتية المختلفة ولكنه يبقى محور الدراسة التركيبية وأساس قيامها قديما وحديثا.

5.قائمة المراجع :

1- البهنساوي حسام،(2005) الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، القاهرة ،مصر،زهراء الشرق، ط1.

2- البهنساوي حسام، (2004)، علم الأصوات، مصر،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1.

3- دبه، الطيب،(2004)، مبادئ اللسانيات البنيوية، دراسة تحليلية إيستمولوجية، الأغواط ،المطبوعات الجامعية، دط.

4-عمر أحمد مختار ،(1997) ،دراسة الصوت اللغوي، القاهرة،عالم الكتب،دط. .

5-سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر،(1982)،الكتاب، دار الكتب العلمية، ،ط2.ج4 .

6-عبد الله رمضان ،(2006)، أصوات اللغة العربية بين الفصحى واللهجات، الاسكندرية، مكتبة بستان المعرفة ، ط1.

7- كمال بشر،(دت)علم الأصوات، القاهرة ، دار غريب ،دط .
8- جوزيف فندريس، اللغة، (1950) ،تر: عبد الحميد الدخلاوي ومحمد القصاص، مطبعة لجنة البيان، القاهرة .
9- عبد المعطي نمر موسى،(2008)، الأصوات العربية المتحولة وعلاقتها بالمعنى ،الأردن، دار الكندي للنشر والتوزيع، ط1.
10- شرف الدين الراجحي، (دت) ،في علم اللغة عند العرب ورأي علم اللغة الحديث ،الاسكندرية،دار المعرفة الجامعية، دط .
11- عبد الرحمن الحاج صالح، (2007) ،بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الرغاية ،الجزائر،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ج2
12- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله (1978)، أسباب حدوث الحروف، القاهرة،مكتبة الكليات الأزهرية.دط .

الأطروحات :

13-عبد السلام ،سلمى (1986)،،الفنولوجيا الوظيفية من خلال كتاب مبادئ الفنولوجيا لتروبتسكوي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب.

هوامش البحث :

[1] – حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث ، ص125.

[2] – عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة ، ص303.

[3] – ينظر: الطيب دبة، مبادئ اللسانيات البنوية، ص171، (بتصرف). وأحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص169، (بتصرف).

[4] – عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، ص303.

[5] – رمضان عبد الله، أصوات اللغة العربية بين الفصحى واللهجات، ط1، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، 2006، ص30.

[6] – كمال بشر، علم الأصوات، دط، دار غريب، القاهرة، دت، ص481.

[7] – حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث ص157.

[8] – المرجع السابق، ص157.

[9] – المرجع السابق، ص157.

[10] – حسام البهنساوي،الدراسات الصوتية عند العلماء العرب و الدرس الصوتي الحديث، ص151.

[11] – – حسام البهنساوي،الدراسات الصوتية عند العلماء العرب ، ص151.

[12] – حسام البهنساوي، المرجع السابق،ص158.

[13] – كمال بشر، علم الأصوات، ص487.

14 – حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث ص199.

15 – المرجع السابق، ص159.

16 – كمال بشر، علم الأصوات، ص485.

17 – المرجع السابق، ص485.

18 – كمال بشر، علم الأصوات، ص486.

19 – المرجع السابق، ص486.

20 – حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث ص 126.

21 –كمال بشر، علم الأصوات، ص488.

22 – كمال بشر،علم الأصوات، ص 488.

23 – سلمى عبد السلام، الفونولوجيا الوظيفية من خلال كتاب "مبادئ الفونولوجيا لتروبتسكوي"، ص7،

24 – سلمى عبد السلام، الفونولوجيا الوظيفية من خلال كتب "مبادئ الفونولوجيا لتروبتسكوي"، ص7، نقلا عن تروبتسكوي، مبادئ الفونولوجيا، ص38.

25 – السابق، نقلا عن تروبتسكوي،مبادئ الفونولوجيا ،ص40 وما بعدها.

26 – حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، ص 162.

27 – كمال بشر، علم الأصوات، ص420.

28 – جوزيف فندريس، اللغة، تر: عبد الحميد الدخلاوي ومحمد القصاص، مطبعة لجنة البيان، القاهرة، 1950، ص62.

29 – عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص115.

30 – عاطف مدكور، علم اللغة بين التراث والمعاصرة، ص123-124.

31 – معجم اللغة النظري، ص11.

32 – أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص172.

33 –ينظر كمال بشر، علم اللغة العام (الأصوات)، ص180.

34 – الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنيوية، ص182.

35 – كمال بشر، علم اللغة العام (الأصوات)، ص210.

36 – حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، ص124.

37 – المرجع السابق، ص124.

38 – عبد المعطي نمر موسى، الأصوات العربية المتحولة وعلاقتها بالمعنى، ، دار الكندي للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، 2008،ط1، ص22.

39 – حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، ص124.

40 – شرف الدين الراجحي، في علم اللغة عند العرب ورأي علم اللغة الحديث، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، دت، دط، ص151.

41 – سبويه،الكتاب ،ج4،ص430 و ما بعدها.

42 – حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، ص125.

43 – حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب ، ص125.

44 – سيبويه،الكتاب، ج4،ص432.

45 – سيبويه، الكتاب، ص125.

46 – عبد المعطي نمر موسى، الأصوات العربية المتحولة وعلاقتها بالمعنى، ص29.

47 – عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،وحدة الرغاية، الجزائر، 2007م،ج2، ص178 نقلا عن ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تح: يحي مير علم ومحمد الطيان، دمشق، 1983، ص60.

48 – كمال بشر، علم الأصوات، ص492.

49 – كمال بشر، علم الأصوات ، ص 492.